ناموس الثورة

مصطفى علي شلال

يا من كان جديراً بنا ان نستوحيك على الدوام، لمصدر الهاس النبل وعلما قويا، وامتد بأغواره اجيالا واجيالا. ولا يزال يسطع كذلك حتى ينتظم اللانهايات وينفذ الى ما وراء الارض والسموات، وظل نور الله حد يقف عنده او معلم ينتهي اليه. فبدايتك غذي النبوة وسليل العصمة. فقد ولدت والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تتسامى به منازله وتتعالى به ابراجه. فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كالشعاع قبل الشمس يجلا جانبا من الفضاء. وكان علي تملأ صرخات سيفه ارجاء المعمورة.

اما نهايتك، فأعظم بها نهاية، وأعظم بها تضحية وأعظم بها مثلا وذكرى نادرة. حتى كان به الله خطت بها على الابدية سطرا احمر قانيا قد خط سطرا على الايام لغروة وكان به أمجاد وإعصابا يا حبذا الموت دون المجد مجللا وأحقرّ بعيش الذل اتقانا

فلنسمع الاجيال وللمشاعر الإنسانية، على الصوت الرجاف الذي ينبعث من الاعماق لينفذ الى الاعماق ((إنا بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله)). كلمات معدودة ولكنها كانت ناموسا للثائرين. كلمات معدودة تصور برنامجا خطيرا ودستورا حيا واسعا. تلك الكلمات هي صورة من صور المحافظة على السلام والرغبة فيه، ما لم يغلب السلام عرينا ويتعشى على الآمنين. شاءوا ان يروا حامل الحق ومظهره ان ينحني بصغار ويخضع بذلة، لرجل الباطل والفسوق والتجاوز والخروج والتحدي لله ولرسوله والمؤمنين والمجاهرة بدون مبالاة ولا ارعواء ولا احتشام. ارادوا للعزة ان تبتلع الذلة وتخنع لها ولكنهم نسوا او تناسوا انه من بيت ارضع الكرامة ارضاعا ((الا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين الذلة والسلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون)). اذن عندما تكون المبايعة استسلاما وخضوعا حتى الموت. فهي رق اجتماعي وسياسي وديني. كان لزاما على المرء ان يتروى عن بيع نفسه ... فلم يبيع. ولمن يبيع؟ اذا كان الخليفة فاسقا فاتكا ارقش الدين ظالما عاتيا عاليا، كان معنى المبايعة له بيع النفس للفسوق، بيع النفس للفحشاء، بيع النفس للظلم والعدوان، بيع النفس لمجاهرة الله بالعصيان، ولأن يزيد الفاجر كان صفة من كل تلك الخصال مجتمعة، وهي تعني ايضا خدمة اهوائه الشريرة ونزواته الفاسقة والموت في سبيلها. وأعظم بهذا مبدأ، وأعظم بهذه مبايعة. فكان ضروريا ان يأبى الامام الحسين (عليه السلام) مبايعة يزيد. وان ينتقر او يثور وإن كان في الثورة مهلكه. فسف دون رأيه في الحياة مجاهدا. إن الحياة عقيدة وجهاد.

نعم.. لقد استطاع الامام الحسين (عليه السلام) ان يطوقها بحلاوة رأيه وبسعة شدة ثقته وان يرسمها صيحة مدوية تصم آذان الظالمين والفاجرين وتبقى مدوية ... الظالمون (وستبقى) مظهر الحق ورجل الميادين والتقوى والاباء والشرف والكرامة والدين الخالص (لا يبايع مثله) مظهر الباطل ورجل الفسق والفجور والعصيان والدناءة. هذا معنى البيعة عند الامام الحسين (عليه السلام) وتحسن اذا فهمناها ليسهل علينا ان نفهم كيف ان الامام الحسين (عليه السلام) عظيم بكل المعنى وأمكننا ان نشخص عظمته من اقطارها، وكيف كان آية لكل شيء. آية العظمة المبدأ وعظمة الصراحة وعظمة المضاء وعظمة الاباء وعظمة البطولة وعظمة الاستشهاد. هذه انواع من العظمة او عظمات متفرقة، اذا اتصف بواحدة واحدة منها رجل جعلته في مصاف الخالدين، ورفعته الى مدارج الابطال التاريخيين وحفظت له ذكرا عطرا في العالمين. فكيف وقد اجتمعت في جسم انساني يحيط بروح قدسية هي انعكاس لحضرة القدس على الارض، الامام الحسين (عليه السلام).

شاعر آل البيت وصاحب التائية الخالدة

دعبل الخزاعي .. الثائر الذي حمل خشبته خمسين عاما بحثا عمن يصلبه عليها

اعداد : هشام الفاخر

الشاعر دعبل الخزاعي من ابرع شعراء عصره، وقد ذاع صيته بعد ان كتب تائيته الخالدة في رثاء شهداء آل البيت في العصر العباسي، غير مبال بالأخطار التي قد تلحق به نتيجة كتابة قصيدة تتعرض للسلطات التي تميل معاداة آل البيت.

وقد اختلف المؤرخون في اسم دعبل والقابه، فذكروا له ثلاثة اسماء (الحسن، عبد الرحمن، محمد) ومع هذا لم يعرف الشاعر غير بلقبه (دعبل) ويكنى باسم (ابو علي، ابو جعفر) وقد اشتهر بالتائية. وقد ولد دعبل بن علي الخزاعي على الارجح سنة ١٤٨ هـ ولم يعرف مكان ولادته بالضبط، وتشعر اسرته من الكوفة، ومن المؤكد انه قضى سني حداثته في الكوفة. ويعد دعبل من العلماء والمتكلمين وحفظة الادب ومن الموثقين على الثقة، ويروي الكليني في اصول الكافي ما يدل على انه لقي الامام الجواد. فيما ذكر ابن شهر آشوب ان دعبل كان من اصحاب الامامين الكاظم والرضا عليهم السلام. وفي روضات الجنات ذكر انه أدرك اربعة من اهل البيت.

شب دعبل وترعرع على حب الادب والاختلاف الى مجالس الكوفة الحافلة بالافكار السياسية والحزبية والتي تعتبر مركز الفكر ومنبع العلم والفقه ومرتع الثائرين على الانظمة الفاسدة.

ويقال ان دعبل عندما سمع ان المأمون بويع بالخلافة وانه دلف يتقرب من اهل البيت واعلن ولاية العهد للامام الرضا عليه السلام في (مرو) بخراسان، شد الرحال الى خراسان لتلك الفرصة ولهذه الغبطة ليقابل الامام الرضا ويتبرك به، وينشد في حضرته القصيدة ضمنها آراءه ومشاعره وخواطره، وقد اعجب الامام بالقصيدة واضاف لها بيتين، ثم فيهما الامام ان كل ما قام به المأمون في موضوع مبايعته للرضا، ماهي الا مناورة وحيلة لبقائه في وقت لاحق.

تميز شعر دعبل بصورة الحسية الناطقة المعبرة عن كل ما يحس به من آلام ونكبات، وان كان الكميت قد تصدى بقصائده لبعض مواقف اهل البيت كان دعبل في (تائيته ورائيته) فضح ممارسات الدولة العباسية ضد اهل البيت وائمة الحق.

وكان البحتري يرى في دعبل اشعر العرب ولم ينفرد البحتري بذلك بل وافقه الكثير من الادباء المعاصرين له، قال فيه المأمون "ما اعرفه وأنصفه وأوصفه". وقال ابن شرف القيرواني "دعبل مدبر مقبل، اليوم مدح، وغدا قدح يعد في الطريقين، كان شاعر علماء وعالم شعراء" اشتهر دعبل بقوة شاعريته وكثرة شعره، وفي رواية عن الجاحظ، قال "سمعت دعبل يقول: مكثت نحو ستين سنة، ليس من يوم ذر شارقه الا وانا اقول شعرا". ويشير هذا على انه شاعر مكثر مجيد في وقت واحد، وانما انقطع الكثرة والاجادة.

ولم يبق قطعة من الشعر ان نالت اعجاب سائر الطبقات بما فيهم الشعراء، مثل ما نالته ابيات دعبل المعروفة "أين الشباب وأية سلكا" التي يعتقد انها من اوائل شعره.

وقد كان لهذه الابيات صدى واسع في الاوساط الادبية وذكر بين سائر الناس، وقد انتشرت فحفظها الصغار والكبار، وعندما سمعها ابو نواس، اثنى على دعبل قائلا "احسنت ملء فيك واسماعنا". وعندما سمعها الوليد الشاعر المعروف، قال له "اذهب الان فاظهر شعرك كيف شئت ولمن شئت".

ولم يخف دعبل نفسه من اعجابه بهذه الابيات، فقد كان يقول انا ابن قولي:

"لاتعجبي ياسلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى"

ومما لاشك فيه ان تائية دعبل التي تناول فيها مظالم اهل البيت، قد او غلت صدر المأمون العباسي لاسيما وانها عبرت عن خلجات صدر متلهب بما العترة الطاهرة من ظلم وجور، وعندما القاها في حضرة الامام الرضا عليه السلام، كان لها تأثير ابلغ بحيث ان بعض ابياتها ابكت الامام الى حد الاغماء. وبعد الانتهاء من القصيدة دخل الامام الى الدار وجاء له بصرة الالف درهم الا ان دعبل ردها وطلب ثوب من ثياب الامام للتبرك، فاعطاه الامام جبة الى جانب المبلغ.

وقد اشار جمهور من المؤرخين الى قصيدة دعبل التائية وعدوها من أحسن المدائح المقولة بحق اهل البيت عليه السلام كما يقول ابو الفرج والرومي وغيرهما.

ومع تقدم دعبل في العمر كان يزداد صلابة في انتقاد الحكام والولاة، وقضى سنين في قلقة من عمره هاربا من ولاية الى اخرى، ورغم تعرضه حتى للشعراء فلم يتجرأ احد على الرد عليه، وفي هذا الصدد ذكر ابن المعتز عن ابن اليزيدي قال "سأل رجل ابن الزيات: لم لاتجيب دعبلا عن قصيدته التي هجاك فيها؟ قال "ان دعبلا قد نحت خشبته وجعلها في عنقه، يدور بها يطلب من يصلبه بها منذ ثلاثين عاما، وهو لايبالي مقال ومقعل".

وذكر المصادر ان دعبل لما هجا مالك بن طوق التغلبي، وطلبه مالك هرب الى البصرة وكان عليها اسحاق بن العباس بن محمد ولما بلغ اسحاق خبر هجاء دعبل، امر رجاله بالقبض عليه، فقبضوا عليه وجاءوا به مخفورا، وطلب اسحاق السيف ليقتله فأنكر دعبل القصيدة، فاستبدل الوالي عقوبة القتل بالتعذيب ومن الافراج، بعدها هرب دعبل الى الاهواز. ويروى ان مالك التغلبي بعث رجلا لاغتياله وكانت وفاته في سنة ٢٤٦هـ.

القصيدة التائية

بكيت لرسم الدار من عرفات وأذريت دمع العين بالعبرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات
ديار علي والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذي الثفنات
منازل، وحي الله ينزل بينها على احمد المذكور في السورات
منازل قوم يهتدى بهداهم فتؤمن منهم زلة العثرات
منازل جبريل الامين يحلها من الله بالتسليم والرحمات
منازل وحي الله معدن علمه سبيل رشاد واضح الطرقات
ديار عفاها جور كل منابذ ولم تعف للايام والسنوات
فيا وارثي علم النبي، وآله عليكم سلام دائم النفحات
قفا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات
هم اهل ميراث النبي اذا اعتزوا وهم خير سادات وخير حماة
اذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ويوم حنين أسبلوا العبرات
وكيف يحبون النبي ورهطه وهم تركوا احشاءهم وغرات
أفاطم لو خلت الحسين مجدلا وقد مات عطشانا بشط فرات
اذن للطمت الخد فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم، قومي يا ابنة الخير واندبي نجوم سماوات بارض فلاة
قبور بكوفان، واخرى بطيبة واخرى بفخ نالها صلواتي
وقبر بارض الجوزجان محله وقبر بباخمرا، لدى الغربات
وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات
نفوس لدى النهرين من ارض كربلاء معرسهم فيها بشط فرات
توفوا عطاشا بالفرات، فليتني توفيت فيهم قبل حين وفاتي
الى الله اشكو لوعة عند ذكرهم سقتني بكأس الثكل والفظعات
فيارب زدني من يقيني بصيرة وزد حبهم يارب، في حسناتي
سأبكيهم ماحج لله راكب وما ناح قمري على الشجرات
بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات
سأبكيهم ما ذر في الارض شارق ونادى منادي الخير بالصلوات
فيا نفس طيبي، ثم يا نفس ابشري فغير بعيد كل ماهو آت
ولا تجزعي من مدة الجور، انني ارى قوتي قد آذنت بثبات
شفيت، ولم اترك لنفسي رزية ورويت منهم منصلي وقناتي
فاني من الرحمن أرجو بحبهم حياة لدى الفردوس غير بتات
فان قلت عرفا انكروه بمنكر وغطوا على التحقيق بالشبهات
سأقصر نفسي جاهدا عن جدالهم كفاني ما ألقى من العبرات
احاول نقل الشمس من مستقرها واسماع احجار من الصلدات